من روائع الشرق والغرب

المشهد العام للكون

لشانو بريان

من كتابه « عبقرية المسيحية »

إن فى الكون إلهاً تقدسه أعشاب الوادى ، وتمجده أدواح الجبل ، وتسبح بحمده الحشرة ، ويحييه فى الصباح الفيل ، ويغرد به على الغصون الطير ، وتُبرق بقوته الصاعقة ، ويدل على سعته البحر ، والانسان وحده يزعم أن ليس فى الكون إله ! كأنه لم يرفع بصره إلى السماء فى بلائه ، أو لم يخفض نظره إلى الأرض فى رخائه ! وكأن الطبيعة بعيدة عن تناوله ، خارجة عن تأمله !

لعله يعتقد أنها أثر من فعل المصادفة ! ولكن أية مصادفة استطاعت أن ترغم مادة نافرة عصيّة على هذا النظام الكامل المحكم ! ؟

إن فى إمكانك أن تقول إن الانسان فكرة الله المُعلَنة ، وأن العالم مخيلته المُحَسَّة ، وأن الذين قبلوا أن يكون جمال الكون دليلاً على قوة الادراك وسمو البصيرة كان يجب عليهم أن يلاحظوا شيئاً تعظم له كرة العجائب وتزيد به بدائع الخلق : ذلك أن ما ينوع زخرف الدنيا وجمال الوجود من الحركة والسكون ، والظلام والنور ، وتوالى الفصول ، وسبوح الكواكب ، ليس تعاقبه إلا فى الظاهر ؛ أما فى الواقع فكل شئ ثابت ؛ فالمشهد الذى يَمّحى من عيوننا ، يشرق فى نظر قوم غير قومنا . إنما يتغير الناظر ؛ أما المنظر فهو باق على حاله . وهكذا يجمع الله فى صنعه بين الدوام المطلق والدوام المتجدد ؛ فوضع الأول فى الزمان والثانى فى المكان ، وجعل بالدوام المكانى جمال الكون واحداً ثابتاً غير محدود ، وجعله بالدوام الزمانى متكاثراً متجدداً غير متناه ، وبدون هذا لا يكون تنوع الطبيعة ، وبغير ذلك لا تتم عظمة الخليقة

هنا يتراءى لنا الزمن فى علاقة جديدة ، فأدنى جزء من أجزائه يصير كُلاً تاماً يشمل الكل . وإن من شئ إلا يتغير حاله فيه ويختلف نظامه به ، سواء فى ذلك موت الحشرة ، ومولد العالم: فكل دقيقة هى فى ذاتها خلود مصغر

دع فكرك يجمع فى لحظة واحدة أروع حوادث الطبيعة ، فقد ترى أنك ترى فى وقت واحد جميع الساعات ، وجميع الفصول ، وصبحاً من أصباح الربيع ، وبكرة من بُكر الخريف ، وليلاً مرصعاً بالنجوم ، وليلاً آخر ملبداً بالغيوم ، ومروجاً مطرزة بالزهر ، وغابات محملة بالصقيع ، وحقولاً مذهبة بالحصيد ، تجتمع فى ذهنك فكرة صادقة عن الكون

إن فى الساعة التى تعجب فيها بالشمس وهى تغيب فى حنية المغرب ، إنساناً آخر يعجب بها وهى تلوح من حاشية المشرق فبأى سحر خفى تكون هذه الشمس العجوز التى ترقد مكدودة محترقة فى غبار المساء ، هى فى هذه اللحظة نفسها تلك الشمس الشابة التى تستيقظ من خدر الصباح مبللة بالأنداء ؟ !

فى كل لحظة من لحظات النهار تشرق الشمس ، وتسطع فى السمت ، وتغرب عن هذا العالم ، أو قل توهمنا مشاعرنا بذلك ؛ والواقع أن ليس هناك شرق ولا ظهر ولا غرب ! إنما يرتد كل ذلك إلى نقطة محدودة ترسل فيها شعلة النهار فى جوهر واحد ، ثلاثة أضواء فى وقت معاً

من بدائع طاغور

من كتابه (القربان الصائى)

(جيتنجالى)

— ٤ —

يا حياة حياتى ! أنا أجتهد دائماً أن أحفظ جسمى من الدنس ، لأنى أعلم إن لمستك الحية وَسْمٌ على كل عضو من أعضائى

أنا أجتهد دائماً أن أحفظ فكرى من الخطأ ، لأنى أعلم أنك أنت الحقيقة التى تبعث نور العقل فى ذهنى

أنا أجتهد دائماً أن أذود عن قلبي الحبث ، وأدفع عن حبي الذبول ، لأني أعلم أن مسكنك هو الهيكل السري من قلبي

وسيكون قصاراي أن أجتليك في كل محل ، لأني أعلم أن قدرتك هي التي تمدني بالقوة لأعمل

— ٣٦ —

أقبل فجلس الى جانبي ولم أستيقظ ! فعلى نومي الشقي اللعنة !

جاء في سُجُوِّ الليـــل وفي يده قيثارته ، ثم غنى فاهتزت أحلامي لأنغامه !

وا أسفاه ! لماذا تذهب ليالي ضياعاً ؟ ! والهفتاه ! لماذا يفر من مشهدي ، ذلك الذي تمس أنفاسه مرقدي ؟

— ٣٥ —

هناك حيث الفكر آمن والرأس مرفوع ؛

هناك حيث المعرفة حرة ؛

هناك حيث العالم لم يُجَزَّأ أجزاء ضيقة مشتركة ؛

هناك حيث الكلمات تصدر من أعماق الاخلاص والصدق ،

هناك حيث الجهد اللاغب يبسط الأذرع نحو الكمال ؛

هناك حيث البرق السارى للعقل لايضل ضلال الموت في بيداء التقاليد والعرف ،

هناك حيث الذهن يتقدم على نور قيـــادتك في تحرير الفكر والعمل :

هناك في هذا الفردوس ، فردوس الحرية ، تَطَوَّل علي يا أبي أن يكون موطني هناك !

طاغور

إني شكرت لظالمي ظلمي وغفرت ذاك له على علمي
ورأيته أســـدى إليّ يداً لما أبان بجهله حلمي
رجحت إســاءته إلي وإحســـاني فمادَ مضاعَف الجرُم
وكأنما الأحسان كان له وأنا المسيءُ إليه في الحكم
ما زال يظلمني وأرحمه حتى بكيت له من الظلم

« أبو العتاهية »

لقد جاءنا هذا الشتاء وتحته فقير مُعرّى أو أمير مُدَوَّج
وقد يُرزق المجدود أقوات أمة ويحرم قوتاً واحداً وهو أحوج

أحسن جواراً للفتاة وعُدّها أخت السماك على دنو الدار
كتجاور العينين لن تتلاقيا وحجار بينهما قصير حمار

ياقوت ! ما أنت ياقوتٌ ولا ذهب
فكيف تُعجز أقواماً مناكبه ؟
وأحسب الناس لو أعطوا زكاتهمُ
لما رأيت بني الأعـــدام شاكبه

« أبو العلاء »

كأن بلاد الله وهي عريضة على الخائف المطلوب كفة حبل
يؤدّي إليه أن كل تَنِيّةٍ تَيَمّمها تُوحي اليه منازل

« القتال الكلابي »

لقد خفت حتى خلت أن ليس ناظر
الى أحـــد غيري فكدت أطير
وليس فم إلا بسري محـــدث
وليس يد إلا إليّ تُشـــير

« عبيد بن أيوب »

مثل الحقد في القلب إذا لم يجد محركاً مثل الجمر المكمون إذا لم يجد حطبا ، فليس ينفك الحقد متطلعاً إلى العالم كما تبتغي النار الحطب ، فاذا وجد علة استعر فلا يطفئه حسن كلام ولا لين ولا رفق ولا خضوع ولا تضرع ولا مصانعة ولا شيء دون تلف الأنفس وذهاب الأرواح

* * *

ليكن مما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسوداً ، فان الحسد خلق لئيم ، ومن لؤمه أنه يوكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والاكفاء المخلطاء . فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون حين تكون مع من هو خير منك ، وان غُنما لك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك في العلم فتقتبس من علمه ، وأفضل منك في القوة فيدفع عنك بقوته ، وأفضل منك في المال فتفيد من ماله ، وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجاهه ، وأفضل منك في الدين فتزداد صلاحاً بصلاحه

* * *

ابذل لصديقك دمك ومالك ، ولمعرفتك رفدك ومحضرك ، وللعامة بشرك وتحننك ، ولعدوك عدلك ، واضنن بعرضك ودينك على كل أحد

« ابن المقفع »